قضية المرأة (٦)

إنّ الحمد لله... أما بعد:

فمعاشر المسلمين... لقد عُلم بالضرورة أنّ أحكام الإسلام وتعاليمه وآدابه تتوافق مع الفطرة الإنسانية والراحة النفسية والبدنية، يتمثل ذلك في تنظيم حياة الناس وتهذيب جوارحهم وأفئدتهم.

تحجز النفوس عن الشبهات، وتردعُها عمَّا حُظِرَ عليها من الشَّهوات.

لما كان الأمرُ كذلك؛ كانت مجتمعات الإسلام من أسعد المجتمعات تكاتُفًا وتعاضُدًا.

يُؤْثِرُ أحدُهم أخاه ولا يستأثر لنفسه، يفرح لفرحه، ويحزَن لحزنه، تسودهم المحبَّةُ والوئام، وتظللهم روحُ التعاون والتباذل.

كانوا أقوى الناس قلوبًا، وأصدقَهم ألسُنًا، يهابهم عدوُّهم عند ذِكرهم، ويخضع عند ملتقاهم.

كانوا لا يقبلون صرفًا ولا عدلًا في التنازل عن أحكام الإسلام.

معاشر المسلمين... لما كانت قوةُ المجتمع وتماسكه مرهونةً بتمسّك أفراده بأمور الشرع؛ كان ما يحدث في المجتمع من الضعف والتصدُّع بحسب ما يكون في أهله من التفريط والتخاذُل في أمور الشرع.

ولما كانت أحكام الشرع تتفاوت بين الأحكام التكليفية الخمسة، كان التهاون في ارتكاب المنهيات أكثر ضررًا من غيرها، وبخاصة تلك الأحكام التي يترتَّب على التهاون بها مفاسد جماعية يزيد ضررُها وشرُّها بقدر تفشِّيها وانتشارها.

معاشر المسلمين... وإنّ من أعظم أسباب انتشار الفساد في المجتمع المسلم أولئك الكتَبة الذين جنَّدوا أنفسهم لهدم معاقل الدِّين وقِيَمه وآدابه، كتاباتُهم في كلِّ بيت، غلفوها بمظهر النُّصح والحرص على مجتمعاتهم، نشاز من الناس استماتوا في دعوتهم إلى ما ادَّعوا ـ بزعمهم ـ أنّ فيه تقدُّمًا وصلاحًا لما حصل من الخلل!

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾.

ماذا يُريد أولئك بكتاباتِهم وطروحاتهم المستمرَّة؟

معاشر المسلمين... لقد كان من أعظم الأهداف التي طالتها سِهامُهم ورِماحُهم: حجاب المرأة المسلمة وعِفَّتُها.

استماتوا في ذلك بجميع ما زيَّنه الشيطان لهم من الوسائل... تارةً في مقالات صحفية، وتارةً في رسوم ساخرة، يُصرِّحون تارةً، ويُلوِّحون تارةً أخرى.

فلقد تبارت تلك الأقلام في طروحاتها الفكرية والبحوث والحوارات الصحفية، تنوَّعت شُبُهاتهم، حرَّفوا مسار الكَلِم والقلم حتى يصلوا إلى أهدافهم المبيَّتة بليل.

صوَّروا كلَّ ما يقف في ردّ باطلهم بأنه عقبة كؤود تُعيق التقدُّم الحضاري والاجتماعي والاقتصادي! سمَّوا أحكام الإسلام وآدابه عاداتٍ وتقاليد وتراثًا بدائيًّا! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

ثكلتهم أمهاتُهم! أيريدون أن تخرج نساؤنا من عفاف الطّهر والحياء إلى التبرُّج والخنا؟! من رياض الفضيلة إلى مستنقَعات الرَّذيلة.. إلى مسارح الرَّقص والتمثيل... إلى مجالسة الرِّجال جنبًا إلى جنب؟!

يا سُبحان الله! عقلاء الكفرة من الشرق والغرب يُشيدون بواقع مجتمعنا وعفَّة نسائه، ويحذرون مجتمعاتهم من الواقع المخزي الذي تعيشه مجتمعاتهم ونساؤهم، وهؤلاء خانوا مجتمعاتهم!

معاشر المسلمين... إنّ أولئك الكتَبة الذين بُلي بهم مجتمعُنا يتَّكِئون في دعوتهم إلى عمل المرأة وترك الحجاب

واختلاطها بالرِّجال على أنّ ذلك من مصلحة المجتمع.

فعلى سبيل المثال: ينطلق بعض الكُتَّاب المرضى في بثّ شبهته من النظر في واقع المجتمع من منظار اقتصاديّ بحت، ثم يرى أنّ علاج ذلك الخلل لا يكون إلا بدعوى خروج المرأة للعمل دون ضابط شرعيّ، حتى تُدفَع عجلة الاقتصاد ـ بزعمه ـ وأنّ بقاءها مما يؤخِّر الاقتصاد!

وهذا يدلّ على جهلِ وتناقُضِ أولئك الكُتَّاب!

وبيان ذلك أن يُقال:

البدن كلٌّ لا يتجزَّأ، وفي مصطلح الطبّ: يسبق الدواءَ كشوفاتٌ وفحوصات متنوِّعة على بدن المريض لا تظهر فائدتُها للمريض لكنها من الأهمية بمكان عند الطبيب، وعلى ضوء نتائجها يشُخَصِّ الطبيب مرضهَ ويصفُ دواءَه.

وشاهد المقال هنا: أنّ النظر إلى واقع المجتمع من خلال زاوية معيَّنة، وترك ـ أو إغفال أو عدم المبالاة بالأمور الأخرى ـ يحدُث أضعافَ أضعافِ الخلل الذي يُراد إصلاحُه!

هذا في حالة كونه خللًا؛ أما إذا كان المراد تغييرُه مما شرعه الله وأمر به، فالمصيبة الناجمة من تغييره تحمل من الأضرار أعظم وأكثر وأكبر مما تُوُهِّم من الأضرار في بقاء الحُكم الشرعيّ.

يحللون بزعم منهمُ عقدًا وبالذي قالوه زادت العُقَدُ

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فمن فرَّ من حُكم الله ورسوله ـ أمرًا أو خبرًا ـ أو ارتدَّ عن الإسلام أو بعض شرائعه ـ خوفًا من محذور في عقله أو عمله أو دينه أو دُنياه ـ كان ما يُصيبه من الشرّ أضعاف ما ظنَّه شرًّا في اتِّباع الرسول»[1].

معاشر المسلمين... ولئن كان من المسلَّمات عندنا جميعًا أنّ خلع الحِجاب واختلاط الرِّجال بالنِّساء من أعظم أسباب الفساد والإفساد؛ لكثرة النصوص المحذِّرة من ذلك ولِمَا تشهَدُ به العُقول ويُدرَك بالمحسوس، مع هذا كلِّه فإننا من باب التنزُّل مع أولئك الكتَبة نُجيبُهم من واقع تلك الدُّوَل التي بهرتهم حضارتُها...

ففي بلاد الغرب أصبحت المرأةُ سلعةً تجارية مؤقتة، بل إنّ عددًا غير قليل من النساء اللاتي زاحمن الرِّجال في أعمالهم لم تصل إلى مكانها الوظيفي إلا بعد التنازُل عن عِرضِها، ناهيك عن التحرُّشات الجنسيَّة من الموظَّفين بالموظَّفات المتبرِّجات بزينة، يشهد لهذا كثرة الشكاوى والدراسات حول ظاهرة التحرُّش الجنسي من الرِّجال بالنساء في المكاتب

(١) «كتاب النبوَّات» (ص٩٢).

والمصاعد والمدارس والمصانع وغيرها.

ناهيك عن تسخير المرأة في الدِّعاية والإعلان لترويج كثير من السِّلع التجارية، والغالب ـ إن لم يكن الجميع ـ في تلك الدِّعايات ارتباطها بالجسد والمظهر أكثر من ارتباطها بالجوهر.

معاشر المسلمين... ومن واقع تلك المجتمعات التي تمرَّدت على الفطرة يؤخذ مثالٌ واحدٌ لما جنتهُ المرأة في الولايات المتَّحدة، فقد ثبت بالإحصائيَّات عندهم ولادةُ مليون طفلٍ سفاحًا سنويًّا.

وكذا حدوث أكثر من مليون حالة إجهاض سنويًّا، وانتشار الخيانات الزوجية واتِّخاذ الخليلات، وتسجيل كثير من حالات الانتحار.

بل ثبت عندهم أنّ كثيرًا من بناتهم يفقدن شرفهنّ قبل سنّ الثالثة عشرة.

وهذا غيض من فيض... دع عنك ما يترتَّب من الآثار الوخيمة الأخرى على مجتمعهم من جرَّاء نقمة أولاد السِّفاح على مجتمعهم، ناهيك عن الأعباء المالية التي تتكبَّدُها حكوماتُهم في إنشاء المحاضن والملاجئ والسجون والمصحَّات النفسية والبدنية.

ومع هذا الوضع المخزي لبني الإنسان عندهم، فإنّ هناك

مطالبات مستمرَّة مستميتة بأن تُعادَ للمرأة كرامتُها، وأن تُضمَنَ لها حقوقُها... ولكن هيهات هيهات! فتلك صيحاتٌ في بحر لُجِّيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب!

معاشر المسلمين... وعودًا على بدء يُقال:

إنّ من دعاوى أولئك الكتَبة: دندنتُهم حول مقولة: «نصف المجتمع معطَّل»! ينطلقون من تلك المقولة من باب التعاطف المزعوم مع المرأة، والبُكاء حول عطالتها وبطالتها ومكثها في المنزل، وأنّ عملها مع الرِّجال يُلغي أو يُقلِّل العمالة الوافدة!

يا لله العجب! أهذا مبلغُهم من العلم والفهم؟ أهذا نتاج بحوثهم وطروحاتهم؟! يا سبحان الله!

وليس يصحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهارُ إلى دليل

أيّ عطالة للمرأة يعنون؟ وأيّ بطالة للمرأة يريدون؟ أين أمرُ الرَّضاعة والحضانة؟ أين أمر التأديب والتربية للأولاد؟ أين شؤون الطبخ والغَسيل؟ أين ترتيب البيت؟ أليست مكاتب الاستقدام تستقدم حاضنات ومربِّيات وطاهيات وخادمات؟

إنّ المرأة المسلمة في بيتها تقوم بوظائف متعدِّدة، ولا زال كثيرٌ من نسائنا ـ ولله الحمد ـ يقُمنَ بهذه الأمور على أتمّ وجه وأحسن حال.

ثم إنَّا نسأل أولئك الكتَبة: أين كتاباتُكم عن تلك الأعداد الكثيرة من البطالة الرِّجالية من خرِّيجي الجامعات وغيرها؟

أين أنتم من دعوة أولئك وغيرهم إلى دخول مُعترَك الأعمال المهنية التي تناسب أو تقارب تخصُّصَهم؟

أين أنتم من التحذير من كثرة مكاتب الاستقدام التي تستنزف عددًا هائلًا من العمالة، وبخاصة من غير المسلمين؟ مع أنّ كثيرًا من تلك الأعمال يقوم بها وبغيرها رجالُ البلد وشبابُه؟

أين هم من تلك المبالغ الكبيرة التي تُحوِّلها تلك العمالةُ الكافرة إلى بلادها؟

معاشر المسلمين... زعم أولئك أنّ خروج المرأة من بيتها للعمل فيه دعمٌ للاقتصاد الوطني!

وهذه المقولة على إطلاقها باطلة من وجوه كثيرة، منها: أنّ ترك المرأة لأمر بيتها سيترتب عليه ضياعٌ للأسرة أو استقدام للعمالة الوافدة، وفي كلا الحالين من المفاسد ما الله تعالى به عليم.

فكم تأثَّر الناشئة في معتقَدهم وأخلاقهم؟ وكم تأثرت علاقات الزَّوجين بسبب إهمال البيت وواجبات الزوج والأولاد؟

ثم أين حقيقة زعمهم في دعم الاقتصاد الوطني؟!

وحقيقة الأمر أنّ في ذلك أضرارًا اجتماعيةً واقتصاديةً، يتحدَّث حول هذا المبحث أحدُ الكتَّاب الغيورين، فيقول:

«وسيصحب خروجَ المرأة تغييراتٌ اجتماعيةٌ جذريةٌ مهما ادَّعينا غيرَ ذلك، ولا بُدَّ أن يزداد الزِّنا، وبالتدريج سيُسمح به، وسيُغلَّف النَّتنُ والقذَرُ بعبارات الحُبِّ الجوفاء، وعبارات التحرُّر والتقدُّم... إلى آخر المعزوفة الممجوجة التي لا تَمَلُّ أجهزةُ الإعلام من إسماعنا إياها صباحَ مساء، وسيزداد الزواج صعوبةً... وستقلُّ الرَّغبة في إنجاب الأطفال حتى لو أمكن الزواج، وسيقلّ عددُ السُّكان، وسيصبح المتنفَّس الوحيدُ للرَّغبات الجنسية الجامحة هو العلاقاتُ الجنسية المحرَّمة... والتي سيسهل تنفيذُها نتيجة لخروج المرأة واستعمال حبوب منع الحمل.

وتكون النتيجة الحتمية: زيادةَ الحاجة للعمالة الأجنبية بدلًا من خفض تلك الحاجة... وستنتهي حتمًا إلى حالة من الفوضى الاجتماعية والخُلُقية كالتي عانى منها الغرب... وستكثرُ الجرائم بمختلف أنواعها، ويزداد العنفُ وإدمانُ المخدِّرات بين الشباب الذي فقدَ حنانَ الأمومة ودفءَ الأسرة؛ لأنّ الأمهاتِ مشغولاتٌ عنه في المصانع والمتاجر والمكاتِب..

وهكذا يكون خروج المرأة للعمل وبالًا على المرأة وعلى المجتمع، وخسارةً اقتصاديةً واجتماعيةً فادحةً»[١]. انتهى كلامه.

اللهم احفظ نساءَنا من شرِّ الأشرار ومن كيد الفجَّار...

الخطبة الثانية

الحمد لله...

معاشر المسلمين... ومما يزيد الأمر وضوحًا في أهمية عمل المرأة المنزليّ: ما صدر من دراسات وتقاريرَ من هيئة الأمم المتَّحدة، تلك الهيئة التي ترد إليها دراساتٌ عامةٌ عن جميع المجتمعات، ثم تخلص من ذلك بإصدار نتائج وتقاريرَ على ضوء تلك الدِّراسات.

وعن الجدوى الاقتصادية لعمل المرأة في منزلها صدر من تلك الهيئة في عام ١٩٨٥م ـ أي قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا ـ تقريرٌ جاء في نصِّه: «لو أنّ نساء العالَم تلقين أجورًا نظيرَ القيام بالأعمال المنزلية، لبلغ ذلك نصفَ الدَّخل القومي لكلِّ بلد،

(١) «عمل المرأة في الميزان» د. محمد علي البار (ص١٥٣-١٥٤).

ولو قامت الزَّوجات بالإضراب عن القيام بأعمال المنزل لعمَّت الفوضى العالَمَ؛ سيسير الأطفال في الشوارع، ويرقد الرُّضَّع في أَسِرَّتِهم جياعًا تحت وطأة البرد القارس، وستتراكم جبالٌ من الملابس القذرة دون غسيل، ولن يكون هناك طعامٌ للأكل ولا ماءٌ للشُّرب.

ولو حدث هذا الإضراب... فسيقدِّر العالَمَ أجمع.. القيمة الهائلة لعمل المرأة في البيت».

ويمضي التقريرُ فيقول: «عملُ المرأة المنزلي غيرُ منظورٍ لدى الكثيرين... وإنّ المرأةَ لا تتلقى أجرًا نظيرَ القيامِ بهذا العمل، وإنّ هذا العمل حيويٌّ، وعلى جانب عظيم من الأهمية... غير أنّ هذه الساعاتِ الطويلةَ من عناء المرأة في المنزل لا يُدرِكُه الكثيرون؛ لأنه بدون أجر».

ثم يقول التقرير: «إنّ المرأة لو تقاضت أجرًا لِقَاءَ القيام بأعمالها المنزلية لكان أجرُها أكثرَ من ١٤٥٠٠ دولار في السنة... وإنّ النساءَ الآن في المجتمعات الصناعية يُساهمنَ بأكثر من ٢٥% إلى ٤٠% من منتَجات الدَّخل القومي بأعمالهنّ المنزلية»[1].

معاشر المسلمين... وإنما سيقت تلك التقارير لأنّ القوم

(١) «عمل المرأة»، سالم السالم (ص٥٢-٥٣).

من دُعاة التحرُّر يتحدَّثون بظنون وتخرُّصات جعلوها من باب المسَلَّمات.

سيقت تلك التقارير ليعرف أولئك أنّ المختصِّين في الاقتصاد العالمي وأمور المعيشة والبيئة هم الأدرى والأولى بالتحدُّث، بدلًا من أولئك الذين نصَّبوا أنفُسَهم خُبَراء في الاقتصاد وخُبراء في علم الاجتماع، حتى تجرَّؤوا على النصوص الشرعية، فقالوا بآرائهم هذوا بما ليس لهم به علم.

معاشر المسلمين... ألا يتَّقي الله أولئك الكتَبة؟ ألا يخشون أن يكونوا سببًا في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا من جرَّاء دعوتهم إلى الاختلاط والتمرُّد على الفطرة والشريعة؟

اللهمَّ اكفناهُم بما شئت...

اللهمَّ إنا نجعلُك في نحورهم ونعوذ بك من شُرورهم..

***